

مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية ، المجلد العشرين العدد الأول، ص41-ص 67 يناير 2012
ISSN 1726-6807 <http://www.iugaza.edu.ps/ar/periodical/>

شخصية الفلسطيني والآخر

في مسرحية (الاغتصاب) لسعد الله ونوس - قراءة تحليلية

د. فضل خليل الشيخ حسن

كلية العلوم التربوية والآداب - وكالة الغوث الدولية (الأونروا) - الأردن

Fadel500@yahoo.com

ملخص: بينت هذه الدراسة تأمل سعد الله ونوس في قضية العرب الجوهرية فلسطين، مع دعوى إلى التفكير بعقلانية، وتوصيف واقعي للشخصيات الفلسطينية واليهودية، ومحاولة للتعمق في فهم الشخصية اليهودية بأبعادها وأمراضها، والشخصية الفلسطينية بعنادها، على الرغم مما يحيط بها من إحيات، كما وتقدم طروحات ونوس، وملامح خطابه ومسرح التسييس عنده لتمثل نخبة من المثقفين الملتزمين بقضايا الأمة.

الكلمات المفتاحية: فلسطين، يهود، الآخر، سعد الله ونوس، الاغتصاب.

The Palestinian and the Other in Sa'dallah Wannous's *The Rape*: an Analytical Approach

Abstract: This study investigated Sa'dallah Wannous's perception of the Palestinian issue in his play *The Rape* which presents Palestine as the Arabs' core political concern. In *The Rape* Wannous portrays his Palestinian and Jewish characters realistically, logically and objectively. The Play was an attempt to understand dimensions and ills of the Jewish characters and the stubbornness of the Palestinian with its determination to survive despite the engulfing frustration. The paper also highlighted Wannous's political hypotheses, characteristics of his writing and dramaturgical style, which represented the dedicated and cultivated Arab elite totally committed to the political causes of the Nation.

Keywords: Palestine, Jews, the Other, Sa'dalla Wannous, *The Rape*

المقدمة:

هذا بحثٌ لم يأت من فراغ، فقد شدني عنوان هذه المسرحية (الاغتصاب) فعندما قرأت ما فيها تعرقت جدران القلب وعادت الأيام إلى الوراء ترسم الذكريات العارية في كل عواصم القلب... أحسست بأن بيني وبين إسماعيل والفارعة قصة عشق لا تنتهي ما دمتنا بشراً، نحن شعب بسيط يريد أن يعيش الحياة بمشمشها كريماً...، لكننا وجدنا القمر يدلي في كل يوم مشنقة، فنغصّ بالدمع...، لأن الدمع يجرح الأجدان وسبب آخر لاختيار هذه المسرحية، وهذا العنوان بالذات؛ ذلك أنني وجدتها

د. فضل حسن

الوحيدة من مسرحيات ونوس التي قرأتها تحمل الفرح والأمل بالرغم من طريق الآلام؛ لأنها مليئة بالشخصيات الشريفة المعطاءة، حاولت في هذه الأوراق أن أكون حيادياً مع صعوبة ذلك؛ لأقارب تحليلياً شخصية الفلسطيني والآخر كما رسمها ونوس في المسرحية، حيث قسمت البحث إلى ثلاثة أقسام أما الأول: فالمقدمة والتمهيد وتلخيص المسرحية، فالثاني: الشخصية الفلسطينية، ثم الثالث: الشخصية اليهودية، وضمنتها نتائج البحث فقائمة المراجع. واذكر هنا أنني اعتمدت في هذا البحث على الرواية نفسها ورؤيتي لسطورها من خلال مسيرة العمر التي واكبت القضية بحروف رمادها أحمر، كغيري من أبناء الخرق الليلي.

سعد الله ونوس: كاتب مسرحي سوري (1949-1991) أحد أهم وجوه الثقافة المسرحية في الوطن العربي، وهو مبدع مسرح التسييس، درس الصحافة في مصر (1963) ثم سافر إلى فرنسا سنة (1966)؛ فتعرف إلى المسرح الغربي وتأثر به وبخاصة المسرح (البرختي) حيث حاول تطويع أدوات المسرح الغربي بما يناسب المسرح العربي واهتماماته، ساهم في تأسيس المعهد العالي للفنون المسرحية في سوريا ونال عدداً من الجوائز على إبداعاته.

يمكن تقسيم المراحل الفنية عنده إلى:

- 1- المرحلة الأولى: المسرح الذهني، وهي مرحلة ما قبل (1967) كتب فيها عشر مسرحيات منها: مأساة بائع الدبس الفقير، جثة على الرصيف، والجراد، وقد امتازت تلك المرحلة بتأثر الأفكار الوجودية وبالعمومية، والتجريد، وباللغة الشعرية، وكان جل اعتماده على البطل المأزوم داخلياً، الملاحق من محيطه الخارجي، وقلّ فيها الحوار الدرامي.
- 2- المرحلة الثانية: مرحلة البحث عن شكل مسرحي جديد، وكانت بعد سفره إلى باريس، واطلاعه على المسرح الغربي بخاصة مسرح (بيرتولدبرخت) وقد استمد ونوس مضامين مسرحياته في تلك المرحلة من التراث الشعبي العربي، ومن التاريخ، وأخذ بتقنيات المسرح الملحمي الأوروبي، وسمّى مسرحه بمسرح التسييس، بحيث يكون المسرح أداة تغيير وتحفيز للمجتمع، عن طريق خلق التفاعل والحوار بين خشبة المسرح والجمهور بهدم الجدار الرابع، وكسر الإيهام؛ لتحقيق عنصر التغريب، وكشف اللعبة المسرحية بتعريف المشاهد بها باستخدام لافتات مكتوبة أو منطوقة، وغلب أسلوب السرد والقص من خلال رواية الممثلين للحدث، استخدم تقنيات المسرح داخل المسرح، ولم يخرج ونوس في كل ما كتبه عن موضوع السلطة، والصراع عليها، وبؤر

شخصية الفلسطيني والآخر

الفساد المجتمعي التي تخدم تلك السلطة، فكانت أولى مسرحياته هي: حفلة سمر من أجل 5 حزيران، الفيل يا ملك الزمان، ومغامرة رأس المملوك جابر، وغير ذلك من المسرحيات التي مثلت تلك المرحلة.

3- المرحلة الثالثة: وفيها انقطع ونوس عن الكتابة منذ عام 1979 حتى 1989، ولعل خيبات الأمل جعلته صامتاً خلال هذه الفترة.

4- المرحلة الرابعة والأخيرة: مرحلة التألق والتأمل وفيها اكتشف أن المشكلة شديدة التعقيد حيث هناك بنى اجتماعية متخلفة يجب فضحها، تقابلها بنى متقدمة لا تترابط معها، ثم مشكلة غياب المشروع النهضوي بروى مستقبلية، إضافة إلى معاداة السلطة للمجتمع وإفسادها له، فكتب مسرحية الاغتصاب سنة (1989) ثم توقف حتى عام (1992) حيث أصيب بسرطان البلعوم، والغريب زيادة تدفقه ونتاجه بعد إصابته بالمرض، فكتب أفضل أعماله: منمنمات تاريخية، ويوم من زماننا، طقوس الإشارات والتحويلات، أحلام شقية، ملحمة السراب، الأيام المخمورة، ورحلة في مجاهل موت عامر، وفي تلك المرحلة أدرك مضامين مثل: النظام العالمي الجديد وتهميش الثقافة والمتقف، وبالإضافة إلى غزارة إنتاجه في تلك المرحلة، أصبح النص عنده مفتوحاً لحرية الإدراك والتأويل للمتفرج الواعي المحتمل الوجود، وكثر في نصه: الفعل الثقافي وتبادل الأفكار، وعلو الحس الإنساني، وغزارة توظيف التراث، وتجسيد أسئلة ذلك التراث.

لقد ترك ونوس عشرين مسرحية بين طويلة وقصيرة، وكان صاحب أثر في المسرح العربي، فهو مبدع مسرح التسييس، وواضع أصوله.

التمهيد: مسرحية الاغتصاب كتبها ونوس عام (1989) حيث أعاد فيها معالجة المشكلة الفلسطينية من خلال استفادته من نص للكاتب الإسباني (بويروباخو) بعنوان: القصة المزدوجة للدكتور بالمي، وهي عمل قام على روايتين وحكايتين، إحداهما حكاية فلسطينية، وأخرى: رواية إسرائيلية، تتداخل الروايتان وتتباينان ما بين صمود وكفاح فلسطيني وقمع وإفناء صهيوني، وفي الاغتصاب يتجاوز ونوس ركام العداة التاريخي الذي يفصل بين العربي والإسرائيلي بسوعي وطني مسؤول وروح إنسانية رفيعة، فيسلط الضوء على ما يحدث داخل الآخر الإسرائيلي، ويلتقي كمتقف عربي حر بالشخصيات الإسرائيلية الشاهدة على ما يحدث من جنون صهيوني، والمسرحية مداخلة سياسية فكرية تعلق على الحوادث اليومية للفتك الإسرائيلي بالوجود العربي، وقد كانت المسرحية

د. فضل حسن

تفاعلاً إبداعياً فنياً ومعرفياً وتاريخياً لمواضيع مثل: الحق، والحرية، والمقاومة، وغير ذلك، وكانت مواجهة الوجود الفلسطيني ضد القمع الإسرائيلي، فهي معركة تحرر أو لا قبل الحرية. وتلك الرواية تمثل نصاً مفتوحاً قابل للتحوير والتعديل والزيادة التي تملئها المرحلية التاريخية، فالرواية الفلسطينية لا تخدم قولها ولا تنتهي، بل تتركه مشرعاً وكذلك الرواية الإسرائيلية، وإن كانت بدرجة أقل.

إن مسرحية الاغتصاب؛ وعي تاريخي، وإبداع فني، كلاهما شرط جوهري للآخر، فتأمل ذلك الحوار:

مائير: من هم الفلسطينيون؟ لا يوجد فلسطينيون... **إسماعيل:** ومع هذا فإن بعض الفلسطينيين يشحذون خيالهم؛ كي يتصوروا دولة كريمة تتسع لي ولك، دولة حقوقنا فيها متساوية وحياتنا مكفولة، إنهم يحملون... **مائير:** ما هذا اللغو؟ من توسل إليكم كي تخططوا لنا مستقبل وطننا؟! **إسماعيل:** وطنكم **مائير:** نعم... وطننا الذي لم تكتمل حدوده بعد. **إسماعيل:** ووطني.. أين ذهب إن؟! **مائير:** وما أدراكي! اذهب وفتش عنه عند أولئك العرب.

إسماعيل: لا أيها السيد، هنا وطني وهذه أرضي، هنا ولدنا. وهنا ولد آباؤنا وقبلهم أجدادنا. منذ قرون وقرون ونحن نحيك مع هذه الأرض العلاقات والمواثيق. وشممتنا ووشمناها. غدتنا أحياء وتغذت بنا أمواتنا، اصعد الجليل أو انحدر جنوب حيفا، تأمل أسوار عكا أو تقياً زيتون الخليل، فستجد أينما توجهت وشمماً له سيماءنا وينبئ بتاريخنا، لا أيها السيد هنا وطني، هنا تاريخي وحبل مشيمني. وينبغي أن يكون التاريخ قرصاناً مختلاً؛ كي يعطي حق الوطن لنزعة إمبريالية تسترّها خرافة وتحملها دبابة... **مائير:** لقد حسم الصراع أيها الأبله. **إسماعيل:** لا... لم يحسم بعد أيها السيد. الأعمال الكاملة، المجلد الثاني، ص 125-126.

أحداث المسرحية: هي أحداث نعيشها، أو عشناها، عائلة حسين الصفدي الأب، الفارعة البنت الكبرى، وإسماعيل، ومحمد كانت تعيش بسلام مع كل إطلالة للفجر، ثم يأتي من يسرق فرحها وحريتها ويحتل أرضها؛ فتفرض عليها المقاومة، إنها قصة كل عائلة فلسطينية، الأب حسين الصفدي انضم للفدائيين ثم استشهد، أما إسماعيل فكان من خلايا المقاومة اعتقله الصهاينة وعذبه لكي يعترف فصمد حتى اغتصبوا زوجه أمامه ثم انهار فاستشهد تحت التعذيب، أما محمد فيعيش في اضطراب بين الخيانة لنيل مصلحة أو الانضمام إلى ركب الشرفاء، والفارعة الأم الفلسطينية والتي تعطي ولا

شخصية الفلسطيني والآخر

تأخذ دائماً، تدعم الجميع، واعية لما يدور حولها، لم تفرح بزواجها من صديق والدها عمر المناضل؛ لأن اليهود سرقوا فرحها حيث سجنوه تأبيدة في الفارعة، ودلال زوج إسماعيل، ابنة التاجر الغني تترك أهلها لتتزوج من إسماعيل المناضل لتكابد كما كابد بعلمها، لتعتقل ثم يعتدى على شرفها أمامه، ثم لتخرج من السجن إنسانة معبأة بحس الإنتقام والمقاومة فتشترك معهم في مقارعة الإحتلال. هذه اللوحة البيضاء والتي وضعها ونوس في سبعة مقاطع سمي كل مقطع بسفر الأحران اليومية.

أما اللوحة السوداء فكانت للمقابل الصهيوني، عائلة مكونة من الأم والبعل جوزيف بنحاس، والابن اسحق، والزوجة راحيل، وصديق العائلة مائير، ورفقاء العمل جدعون وموشي، يأتون من المجهول يتسللون كالنمل، ومع القصة التي نعرفها إسرائيل - أما الأم فمتعصبة للتاريخ اليهودي، مخلصه للصهيونية تهاجر مع بعلمها جوزيف إلى إسرائيل وتعمل كالشعلة من أجل مبادئ الصهيونية، فيعارضها بعلمها جوزيف، والذي يحمل بعض الاحتجاج على أساليب الصهاينة، فيلاقي مصيره بموت غامض على يد مائير صديق العائلة، والمعجب بحماسة الأم للصهاينة والتي تعجب به، وترى فيه صورة لنبي يهودي لكثرة تشده للصهاينة، وتقوم بينها علاقة إعجاب بالفكر، ويربون الولد اسحق على هذه المبادئ، حتى يكبر ويصبح عضواً في جهاز الشين بيت المختص بتعذيب الفلسطينيين، و الذي يرأسه مائير، ويواجه إسحق عجزاً في رجولته، فيراجع الدكتور ليقص عليه فصول عملهم الرهيب، ومنها تعذيب إسماعيل الفلسطيني وإغتصاب زوجه دلال بصورة فذرة، ويكون تشخيص الدكتور إبراهيم لهذه الحالة بأنه من تأنيب الضمير، ويقع صراع في نفس اسحق بين الضمير وعمله، ثم ليقرر ترك العمل وبخاصة بعد معرفته أن صديقه في العمل جدعون - أدوات القتل والبطش - قد اغتصب وغدر زوجه راحيل، فيواجه اسحق رئيسه في العمل ومربيه مائير بتلك الرغبة في ترك العمل لشكه في عدالة عمله، فيكون مصيره القتل، فلا يأسف على قتله مائير ولا حتى أمه.

أما راحيل: فتعيش مع بعلمها اسحق حتى تبدأ الاضطرابات عنده، ثم الصدمة عند اغتصابها من جدعون بعد أن غدر بها واستدرجها بدعوى تقديم المساعدة فنتهار، وتقرر ترك كل شيء والسفر إلى عمتها في أمريكا، مقررة بدعم الدكتور إبراهيم نشر القصة على أوسع مستوى.

وقد قدم ونوس هذه اللوحة السوداء من خلال تسعة مقاطع، سمي كل مقطع منها سفر النبوءات، وبين تلك الأسفار وضع مفاصل فارضاً فيها الدكتور أبراهام كشخصية إيجابية تلقي ظلالها معارضة لبني جلدتها من الصهاينة ومحتجة على أعمالهم. لقد طرح ونوس في تلك المسرحية عدة

د. فضل حسن

أفكار جريئة أستطيع أن أجملها بأننا نستطيع أن نواجه واقعنا، فهناك فرق بين اليهود والصهاينة، فيوجد في الجانب الآخر من ينبذ أعمال العنف الصهيوني كالدكتور أبراهام، وهناك من يعارض أعمالهم مثله، والأمر الآخر أنه كما في الجانب الآخر صهاينة يوجد في الجانب العربي صهاينة ينبغي أن نواجههم، متحدين، أعني الدعاة إلى الإنسانية يواجهون هؤلاء الصهاينة، والأمر الآخر: أن الفلسطيني ضحية للصهاينة ولذوي القربى بكافة طبقاته وأشكال شخوصه، فهو يحمل أثقالاً من الأحزان والآلام عليه أن يواجهها.

لقد قدم ونوس في مسرحيته أفكاراً ثم ناقشها من خلال شخوص الطرفين مثل؛ المقاومة، الهدف من المقاومة، استمرارية الصراع، المعادة للصهاينة من اليهود، إمكانية التعايش السلمي بين الطرفين، نتيجة التعذيب والظلم والعنف؛ تولد العنف، وإمكانية الحوار مع متعقلي اليهود.

الشخصية الفلسطينية: قبل البحث عن صورة الفلسطيني كما رسمت نفسها عند ونوس، لا بد من تلمس خطوط عامة للشخصية الفلسطينية، كي يسهل علينا تبين طريقنا في تلمس سماتها عند ونوس، إنه كغيره من البشر له عيان واضحتان، يحس ويشعر ويزرع الأرض ويكتب الشعر، يحب ويكره... بسيط بسيط... لكن المؤامرة أكبر منه وفوق طبيته التي رسمها حيدر محمود بقوله: "قتلتنا طبيبتنا... والطيبة ضعف... إن لم يحرسها السيف"⁽¹⁾ عاش ظروفًا متميزة، منذ وعد بلفور، وامتاز سمات خاصة تابعة من أهداف وآمال وآلام، عاشها لفترة طويلة من الزمن، وقد تمثلت هذه المعاناة: أولاً- النضال الدائم؛ للتخلص من الاستعمار البريطاني واليهودي.

ثانياً- التصدي بشكل دائم لخصم صهيوني غاصب مع صعوبة الظروف التي يعيش فيها بسبب تصديه لعدو قوي يمتاز بحقده وبتقدمه التكنولوجي، وبرصيد قوي من عطف ومساعدة العالم له.

ثالثاً- مواجهة الموقف السلبي لبعض ذوي القربى من القضية الفلسطينية والإنسان الفلسطيني. ومن هذه المعاناة انبثقت تصرفاته وآراؤه ومقاييسه الخلقية، وعاداته، وكلها جميعاً ساهمت في رسم خطوط عريضة للإنسان الفلسطيني الذي تميزت شخصيته العامة بسمات خاصة بها تابعة من ظروفها وأوضاعها البيئية والمسلكية، ويمكن اختصار تلك السمات بالشعور بالظلم والاضطهاد، وهو ما أضفى على شخصيته خيبة الأمل؛ فدفعه إلى العناد، وقد ولدت عنده قدرة عجيبة على التصدي

(1) حيدر محمود - الديوان ص 83.

شخصية الفلسطيني والآخر

والثبات، مع عدم الثقة بالوعود والمواثيق الدولية والحيطه والحذر، واتخاذ جانب الرفض في معظم الأحيان، وعدالة قضيته شحنته بالعزم والتصميم على المقاومة بالوسائل المتاحة، لقد جعل سعد الله ونوس شخصياته الفلسطينية واقعية في معظمها مع ما تحمله من الغنائية والرومانسية أحياناً، وهي كلها تقوم في رسم متقابل مع الشخصية اليهودية في الاسم والفعل والأداء. وأولها الشخصية الرومانسية الدعائية.

ولعل أول ما يستحق من الدراسة هو شخصية الفارعة - تلك الأم والعمة - أخت الرجال، الصابرة والتي تمثل الفلسطينية المناضلة المعبأة الواعية إنها أم سعد في صورة من صورها، تلك التي فقدت والدها الذي استشهد في عمل فدائي وبعلمها عمر الذي اعتقل في سجن الفارعة، وعلى اسم السجن سميت، تلك شخصية تعرف دورها الذي فرض عليها، فكانت المربية التي لا تنسى تربية الابن على حب الوطن وترابه والصمود فيه حيث قالت لوعده: "... أصغ جيداً يا وعد... واحتل الصليبيون القدس وأسسوا الممالك وظنوا أن الأمر استقام، لكن القائد صلاح الدين الأيوبي أعد عدة الحرب وانقض عليهم بفرسان مصر والشام...⁽²⁾"، إنه استدعاء للتاريخ فالعدو مشترك والمعتدي قاس والمحرورون هم العرب، فلتحفظ الدرس كما تعيشه.

إنها الأم المتفقة الواعية لأبعاد المؤامرة، وواجبنا اتجاهه وطبيعة عدونا: "زعتري زيت... زعتري زيت... يلعن أبو الشين بيت: دلال: وما هذا، الشين بيت؟ الفارعة: إنه جهاز الأمن الإسرائيلي، الذي يسجن ويعذب، ويحصى أفساسنا"⁽³⁾ "إنه أمان كاذب... لم تغتصب إسرائيل بلادنا كي توفر لنا الأمان... إن واقعا مرعب... موت وإعتقالات... بيوت منسوفة... وأطفال بلا أمهات... أتريدون أن يولد طفلك لا هوية وبلا أمل؟! هذا الطفل النائم، لغموا حياته قبل ان يولد... إنه ينام الآن فوق لغم... في حالتنا الانزواء عن المشاكل يعني الغناء البطيء... ونحن لا نريد أن نفنى"⁽⁴⁾ إنه وعي وإدراك للواقع المؤلم ولطبيعة العدو ودعوة واضحة لمقاومة الفناء - ولكنها لا تقف عند حد الكلام فقط بل تتعداه إلى العمل المخلص والتضحية والفداء فبعلها قد سجن منذ ثماني سنوات ومع ذلك لم تفقد الأمل

(2) ونوس -الأعمال الكاملة- المجلد الثاني ص 128.

(3) - المرجع السابق ص 72.

(4) المرجع السابق ص 75.

د. فضل حسن

برجوعه "إنه في السجن منذ ثماني سنوات... مؤبد، **دلال**: وتنتظرين أن يخرج، **الفارعة**: ولم لا، نحن شعب محكوم بالعيش وفق منطق مبتكر لا يخص سوانا.. علينا أن نتوقع المعجزات.. كما نتوقع الأحداث اليومية المألوفة"⁽⁵⁾، أم لا **تعرف اليأس مؤمنة بحقها** " إذا تسربت إلينا فكرة المستحيل؛ ضعنا... لا نستطيع أن نمضي إلا إذا أيقنا أن كل أحلامنا ممكنة... **دلال**: يا الله ما أقواك...! وما أشدّ إيمانك!"⁽⁶⁾، وتمنح الطمأنينة لمن يتعرض للمحنة مثل **دلال** عند اعتقالها". **دلال**: إنني خائفة... **الفارعة**: لا تخافي يا **دلال** إنك أقوى منهم... ارفعي رأسك وتماسكي"⁽⁷⁾.

وهي الواعية لخطر بذر الفرقة بين الفلسطينيين أو الانغماس في حبال الصهاينة، فتراها ترشد أخاها محمد وتحاول منعه من العمل لدى اليهود مهما كانت الإغراءات ولو كانت بلمّ الشمل لعائلته أو أموال الدنيا كلها "...هذا هو الإحتلال، من ير مصيبة غيره تهنّ عليه مصيبته... إنهم كفار لا يعرفون الرحمة... انظر ماذا حلّ بأخيك وامرأته؟!... تريد أن تعمل في ورشات الإسرائيليين...! أتساوي بين المحتل وابن البلد؟!... إنكم مع العمل تعززون الإحتلال... من يصدق أن ابن حسين الصفدي قال هذا الكلام؟! يا عيب الشوم!"⁽⁸⁾، وهي حين تقاوم لا تفعل ذلك بداع من الانتقام لكنه لدفع الظلم وإرجاع الحق إلى أهله، إنها عقيدة المقاتلين الشرفاء "**دلال**: الأرض لا تتسع لنا ولهم... **الفارعة**: الأرض مباركة لولا نزعة العدوان.

دلال: الأرض أضيق من قبل - إما نحن وإما هم. **دلال**: لولا الصهاينة لما كانت بيننا وبين اليهود عداوة **دلال**: وهؤلاء الذين يحاربون هل شققت عن صدورهم؟ لا... إما نحن وإما هم. **الفارعة**: هذه عبارة متهورة قد تتحول ضدنا ونحن مناضلون ولسنا قتلة، قضيتنا عادلة، وهدفنا هو أن ندحر الصهيونية لا أن نقتل البشر"⁽⁹⁾. وهي المشاركة بالفعل بالمقاومة فها هي تنظم **دلال** لتكون خط تزويد للخلايا. "**الفارعة**: ... هل فكرت في الأمر وعزمت، **دلال**: كلّ العزم، **الفارعة**: كم كنت أمل

(5) المرجع السابق ص76.

(6) المرجع السابق ص78.

(7) المرجع السابق ص79.

(8) المرجع السابق ص96.

(9) ونوس -الأعمال الكاملة- المجلد الثاني - ص120.

شخصية الفلسطيني والآخر

ذلك... فدعينا نبدأ...⁽¹⁰⁾ "الفارعة: وانضمت إلينا. حملت بأسها كالحقيرة... وانضمت إلينا... كانت قذيفة تتأهب للانفجار"⁽¹¹⁾. وهي المصابة في المشفى بعد المشاركة الفعلية في الانتفاضة أثناء تشييع جنازة إسماعيل فداء للوطن وللحرية... ولا يبخل عليها الشباب... كل الشباب بدمهم، فقد كانت رمزاً وشعلة لهم، وهي مصابة تسأل عن الانتفاضة وأهلها، وعن أخيها محمد، فاستحقت كل الحب. "دلال: الدم يعوّض أما الفارعة فلا تعوّض"⁽¹²⁾ لقد كانت حقاً أم سعد - شخصية فلسطينية رومانسية في وجدان كل فلسطيني.

أما الشخصية الثانية فهي البطل المضحي، الصامد، الرمز وقد تمثلت في إسماعيل المناضل الصابر، الذي اعتقله الشين بيت بتهمة إخفاء معلومات عن خلية مقاومة، ويذيقونه ألوان التعذيب... ويقاوم... ويقاوم فهو رمز للجميع. "الفارعة: أعرف إسماعيل، إنه صخرة، والإسرائيليون لن يغنموا شيئاً، لن يغنموا شيئاً من مناطق الصخر"⁽¹³⁾، هذه صلابته أمام الأعداء، ومع هذا فهو يدفق حناناً مع أهل بيته، "كان يتنهد وهو يتحدث عن حبه، يحكي لي عن دفقة الحياة والبراءة... وفي حديثه مع أهل بيته" كان يتنهد وهو يتحدث عن حبه، يحكي لي عن دفقة الحياة والبراءة... وفي حديثه يخالطها بالأرض والمطر والزيتون..."⁽¹⁴⁾ يحب أهله ويحب الأرض، حريص على أهله وعلى حريتهم، ولعلّ أهم ما يميز ذلك الرمز هو الوعي للواقع وللوهم ويظهر ذلك من خلال اللوحة الحوارية بينه وبين مائير رأس الشين بيت مالك السلطة والبطش". إسماعيل: أتعرف أيها السيد ما هو الموضوع الذي يكذب عقول الفلسطينيين؟... مائير: من هم الفلسطينيون؟! لا يوجد فلسطينيون... إسماعيل: ومع هذا فإن بعض الفلسطينيين يشحدون خيالهم؛ كي يتصوروا دولة كريمة تتسع لي ولك... دولة حقوقنا فينا متساوية وحرياتنا مكفولة... إنهم يحلمون"⁽¹⁵⁾. إنه مدرك للوهم وللسراب الذي يسعى إليه اليائسون أو النفعيون، هذا الوعي المنطلق من أمرين: قسوة المعاناة والحُب الممتد مع جذر كل سندیانة أو غصن

(10) المرجع السابق ص 121.

(11) المرجع السابق ص 122.

(12) المرجع السابق ص 153.

(13) المرجع السابق ص 72.

(14) المرجع السابق ص 73.

(15) المرجع السابق ص 124.

د. فضل حسن

زيتون ". إسماعيل: لا أيها السيد: هنا وطني وهذه أرضي، هنا ولدنا، وهنا ولد أبائنا ومثلهم أجدادنا، منذ قرون وقرون ونحن نحيك مع هذه الأرض العلاقات والمواثيق وشَمَمَتْنَا وشَمَمْنَاها. غدتنا أحياء وتغذت بنا أمواتا... ولا بد أن يكون التاريخ قرصاناً مختلاً؛ كي يعطي حق الوطن لنزعة إمبريالية تسترها خرافة وتحملها دبابية"⁽¹⁶⁾، وهو المبصر للمستقبل المدرك لاستحالة التعايش أو نهاية الصراع". إسماعيل: حقاً لا فائدة... ستكون هناك حروباً تتلوها حروب... وستسفك دماء كثيرة حتى يحسم الصراع.. مائير: أهذا ما تخططون له؟! لقد حسم الصراع... إسماعيل: لا... لم يحسم بعد أيها السيد"⁽¹⁷⁾ نعم، هذا هو الرمز الفلسطيني رجل الانتفاضة وعضو الخلية وفرد الأسرة وطفل الأريبي جيه" والفدائي الرمز ثم هو فوق كل ذلك الشهيد، وهناك صورة أخرى للبطل تمثلت أيضاً في عمر زوج الفارعة والذي اعتقل وحكم بالمؤبد بعد إشتباك مع دورية صهيونية، أحب الفارعة وأحبته لشيء مقدس مشترك بينهما هو حب الحرية وتخليص الوطن من الشرذمة المعتدين، وهو رفيق حسين الصفدي في العمل الفدائي (والدا الفارعة) "كان عمر رفيق أبي في مجموعته الفدائية - أنهى دراسته الجامعية - لكنه ترك كل شيء وانضم إلى المقاومة... بعد رحيل والدي قدم لي مساعدة كبيرة... كان ينمو بيننا شعور جميل وأخضر... تعاهدنا على الوفاء... لست الوحيدة التي سجن حبها... حولنا آلاف النساء... ولكننا نتعلم الصبر"⁽¹⁸⁾، ومثل عمر كان حسين الصفدي والد إسماعيل والفارعة ومحمد صورة أخرى للفداء، يمثل جيل العمل الفدائي القديم والمؤمن إيمان العجائز بوجوب طرد الصهاينة، يعمل بإخلاص على تحرير وطنه، ويزرع ذلك في قلوب أبنائه فما هو محمد يتحدث عن علاقة والده بإسماعيل "...كان يرتب الأمور؛ كي يكون إسماعيل ابنه وحامل رايته"⁽¹⁹⁾، وهو المفخر بأعماله ضد العدو "... وبدأ يقص أخبار بطولاته يوم الكرامة، جعلنا الإسرائيليين يتشهدون"⁽²⁰⁾، وهو الجيل الذي يفخر به؛ الأبناء لأنه البطل المقاوم رغم ندرة الإمكانيات "كان أبونا بطلاً يستحق أن نفخر به".

(16) ونوس - الأعمال الكاملة - المجلد الثاني - ص125.

(17) المرجع السابق ص126.

(18) المرجع السابق ص77.

(19) المرجع السابق ص97.

(20) المرجع السابق ص97.

شخصية الفلسطيني والآخر

الشخصية اليائسة المنتقمة المجروحة: وتمثلت تلك عند ونوس في دلال تلك الفتاة البسيطة ابنة التاجر الغني والتي أحببت إسماعيل المعلم المتواضع الحال، وتخلت عن أهلها أو بالأحرى تخلوا عنها؛ لأنها تزوجت من (لمخرب) إسماعيل، ولم تكن تعي في السياسة الشيء الكثير إلى أن وقعت المصيبة هائلة على روحها وجسدها، كانت في البداية تبحث عن حياة هادئة "...لم تهمني معارضة أبي، ولا لفظ الناس حولي، كنت مأخوذة بالأيام البهية التي سنجياها"⁽²¹⁾، وعندها بعض الإدراك لما يدور حولها" لا أجهل المأساة رغم كرهى للسياسة وابتعادي عنها"⁽²²⁾، وتحاول الفارعة أن تنظمها "لا يخفف شقاؤك إلا الكفاح، اتعنين المقاومة؟... ستكون فرحة إسماعيل بك كبيرة... ليس هناك مخرجاً آخر يا دلال"⁽²³⁾.

ثم الطور الثاني من حياة دلال - مرحلة التحول إلى أقصى درجات الإصرار على المقاومة ومحق الاحتلال وذلك بعد اعتقالها والاعتداء الوحشي عليها... "إما نحن وإما هم" لقد تولد لديها وعي جديد بعد هذه الحادثة "دلال... اسمعي وهل إسرائيل شيء آخر؟!... إنني الآن أعرف إسرائيل كما أعرف جسدي... أتعلمين أن لإسرائيل رائحة... إما نحن وإما هم"⁽²⁴⁾، إنها لا تفرق بين الصهيونية وإسرائيل، إنها الحالة الفلسطينية التي فقدت كل شيء أو أتمن شيء تبقى، فلا ضير من حزام ناسف ينشر الجسد على الأرض الحبيبة أو يعيد الابتسامة المفقودة أو يريح من الواقع الأصفر "وانضمت إلينا، كانت قذيفة تتأهب للانفجار..."⁽²⁵⁾ لقد كانت انفلاتاً آخر لأم سعد.

الشخصية المضطربة: وهي التي تتنازعها تيارات المصلحة الفردية من نظرها أو التضحية من أجل الجماعة والوطن فذلك محمد شقيق إسماعيل يختلف عنه كل الاختلاف فيعد عمل إسماعيل تخريباً وتفاهات، وفي صدره صراع مرير من أجل لم شمل عائلته في عمان فهو يصور معاناة الفلسطيني المشتت بين داخل الوطن وخارجه، فلا يستطيع لقاء زوجه (سهام) حيث محاولاته للم شمل تبوء بالفشل "رفضوا طلبي الثاني لجمع الشمل، ولن يكون بوسعي أن أعيش مع امرأتي وولدي

(21) المرجع السابق ص 97.

(22) ونوس - الأعمال الكاملة - المجلد الثاني - ص 72.

(23) المرجع السابق ص 75.

(24) المرجع السابق ص 76.

(25) المرجع السابق ص 122.

د. فضل حسن

كما يعيش كل الناس، في اللقاءات المسروقة يتوالد أطفالنا كاللقطاء⁽²⁶⁾، وهو يمثل فئة لا يعينها الاحتلال بقدر ما يؤثر عليها، فتهرب بشرب الخمر أو السعي للعمل في مؤسسات الاحتلال، وذلك ما تعارضه الفارعة بشدة خلال مناقشتها مع محمد؛ لما في ذلك من دعم للاحتلال ومنقصة في أخلاق أهل الوطن الذين يفعلون ذلك⁽²⁷⁾، والأدهي أنه يفكر بالتجسس كخدمة بسيطة، على أقرب الناس إليه؛ لعلّه يحصل على تصريح بلمّ الشمل، ويعيش في صراع داخلي رهيب لتنازع الغرضين، انتمائيه - وخيانتته - حب الوطن وحب الزوجة.

"محمد: إن عظامي ترتعش... أين أنت يا سهام؟ اقتربي... لا... تريثي؛ إن الثمن فاحش... لا... لا تتاديني... أقول: إنه فاحش"⁽²⁸⁾، ويحاول مرة أن يتجسس على الفارعة ودلال وهما تخفيان الديناميت تحت البلاطة - ولكن الفارعة تعرف أخاها فهي واعية لهذا النوع من المضطربين... تشك به فيطلب مساعدتها... فلا زال يعيش في صراع... وفي هذه الفئة يكمن ضعف الشعب الفلسطيني، لذا ينبغي الحذر منهم كما فعلت الفارعة... ولكن في النهاية وبعد الانتفاضة أثناء تشييع جنازة أخيه إسماعيل يعود محمد إلى ضفة المناضلين "أما محمد فحالته توجع القلب؛ حبس نفسه في الغرفة... ينتفض كالمجنون... لقد أشعل ناراً هائلة وبحركة احتفالية ألقى بطاقة العمل... وراح يتفرج عليها كالممسوس. الفارعة: هذا هو مخاضه، وإذا لم تخذله قواه، فسيلود، ويكون ابن أبيه"⁽²⁹⁾، وهكذا ينضم إلى باقة الورود الحمراء: الفارعة، اسماعيل، دلال، عمر، وحسين الصفدي.

الشخصية السلبية: ولأن نوازع البشر مختلفة، وكثيراً ما تكون ضعيفة أو أنانية، ولأن الشعب الفلسطيني يقع تحت ضغط هائل، فمن الطبيعي أن توجد تلك الفئة بين صفوفه، فئة لا يعينها الاحتلال بقدر ما تهمها مصالحها، وأحياناً تكون مستفيدة من استمرار الاحتلال متاجرة بقوته وكرامته، وهي فئة ذكرها ونوس ولو باقتضاب من خلال والد دلال (بشير البوس) الذي تخلى عن ابنته لزواجها من إسماعيل المناضل: "كان أبي يعيش في قوقعة من الثراء والتجارة، يخاف من الثورة والرعاع، ونادراً

(26) المرجع السابق ص 95.

(27) المرجع السابق ص 122.

(28) المرجع السابق ص 95.

(29) ونوس - الأعمال الكاملة - المجلد الثاني - ص 94 - 98.

شخصية الفلسطيني والآخر

ما يذكر إسرائيل، حتى حرب الـ67 لم تهزه، ولم يخفِ شماتته بعبد الناصر⁽³⁰⁾، وتخلي عن ابنته وبعلمها وهي في أشد الحاجة إليه، لقد تخلى عن وطنه فلا غرابة أن يتخلى عن عرضه". دلال: قال لي أبي: إذا واصلت عنادك؛ فانسي أن لك أياً أو بيتاً⁽³¹⁾. الفارعة: حين أخبرته عن اغتصاب ابنته غسلنا بالشتائم هي وأنا معها، سمانا مخربين... وأقسم أن يتبرأ منها أمام المحكمة⁽³²⁾. وتلك الشخصية موجودة في كل زمان ومكان، لا أحد ينكر ذلك - وأعظم ما فيها من خطر، أنها قد تكون نموذجاً سيئاً يحتج به المتشككون؛ فيتخذونه مثلاً للنجاح كما فعل محمد حين يحدث عنه "محمد هذا هو الفالح، إنه يتر العضو الذي يؤلمه"⁽³³⁾، وظهرت كذلك الشخصية السلبية في بعض أصحاب المصالح والأعمال الذين يستغلون أبناء البلد فيأكلون حقوقهم أو يبخسون أجورهم؛ مما يضطرهم إلى العمل لدى اليهود: "ابن البلد! أنت تعرفين القصة يأكلون حقوقنا باسم الوطن..."⁽³⁴⁾. وهكذا أوصلنا الكاتب من خلال الواقع الملموس الذي عاشته كل شخصيات المسرحية، أن كل فلسطيني أو فلسطينية، لا مفر من عمله بكل الوسائل للتخلص من الواقع المزري الذي أوصلتنا إليه النكبات، فليس القتال هوية الفلسطيني، ولا هو رغبة عابرة، وإنما هو ناتج عن واقع مؤلم قاسٍ، مرّ به الإنسان الفلسطيني، يقاسي: عنت الحياة وذلّ التشريد، وبطش المغتصب وظلم ذوي القربى، فكانت النتيجة الطبيعية عن الحق المسلوب، ومن هنا كان النضال فرضاً ورغبة.

إن معظم الشخصيات الفلسطينية في المسرحية واضحة المعالم رسمت فكرها بدقة، كما كانت محددة الجوانب دقيقة القسمات تتم عن واقع معاش بشكل كامل، إن أعمال المقاومة التي قامت بها تلك الشخصيات تجعلها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً مع شعبها بكل الآلام والأمال، فهي ليست فكرة مجردة لا تعيش إلا في ذهن الكاتب، وإنما هي شخصيات نعايشها أو تعيش داخلنا، نتألم بها ولها، وبتعاطف مع أحاسيسها وشعورها. ولم تعش تلك الشخصيات لنفسها فقط؛ لا تشعر بمن حولها، ولا تحس بالآلم الجمع وأحزانهم، بل عاشت كل المعاناة التي يقاسيها الشعب.

(30) المرجع السابق ص 118.

(31) المرجع السابق ص 154.

(32) المرجع السابق ص 73.

(33) المرجع السابق ص 94.

(34) ونوس - الأعمال الكاملة - المجلد الثاني ص 94.

د. فضل حسن

إن شخصية البطل - في نظري - توزعت على الشخصيات الفلسطينية التي رسمها ونوس: الفارعة، دلال، اسماعيل، عمر، وحسين الصفدي... حتى غدت البطولة هي القضية نفسها، بل هي الشعب الفلسطيني كله أجمع.

الشخصيات اليهودية:

ليسوا مثلنا، عيون صغيرة يأكلها الخوف والحدق، وأنف ناعم وشفقتان رقيقتان وشعر باهت، واصفرار في الوجنتين، وذقون دقيقة تنقط لوماً وجبناً، ثم إنهم لا يشبهون الإنسان⁽³⁵⁾، هكذا وصف الكاتب السوري الملاح الخارجية للشخصية اليهودية، ولكن هذا لا يكفي في التحديد أو الحكم على الشخصية؛ لأن السحنة والقامة أو شكل الجمجمة أو لون البشرة... لا يعتمد عليه في تحديد الشخصية؛ لأن هناك عناصر أثبت وأعمق وأهم - كالعادات والتقاليد والمأثورات، والتراث الحضاري والخطوط الفكرية والاجتماعية المتميزة - أقدر على صبّ الشخصية في قالبها المعين. على أن هناك درجات في الأهمية يجب ألا تغرب عن البال عند اختيار الظروف والعناصر والظواهر التي تخلق الشخصية، فقد تكون الأسطورة التي تؤمن بها جماعة من الناس أعمق أثراً من الوثيقة التاريخية، وقد تكون البدعة التي اختلطت في الدين، أقوى عندهم من الدين نفسه، وقد تكون ذكرى حادثة قديمة أضخم من الحادثة نفسها، كل ذلك يمثل وقوداً تنصهر فيه النفوس، وتنسكب فيه السجايا، وتتبلور فيه الشخصية.

والحقيقة: أن لكل جماعة من الناس أخلاقاً خاصة تراعيها وتسير عليها، وتلك واضحة لا نزاع فيها. وما ينطبق على سائر الأمم ينطبق على اليهود والصهاينة، إذ يشتركون في جوامع مشتركة تميزهم عن غيرهم، فترسم لهم نمطاً معقداً، مركباً. ففي الشتات اتخذ اسم اليهود معنى بغضاً بين الأمم، فهم أبناء الطائفة المتمردة، المنطوية على نفسها، الشديدة التعصب، المعتدية على السيد المسيح، إلى جانب صفات سيئة أخرى اكتسبوها من الظروف الشاذة التي عاشوا فيها بين الأمم الأخرى على شكل أقليات محترقة؛ من أبرزها الجشع وحب المال والقسوة وعدم التدقيق في نظافة الجسم والمسكن والثياب، حتى أصبح أمراً عادياً أن يسمع الإنسان في بقاع متفرقة من الأرض عبارات مثل: اليهودي الجشع، القذر، ...

وقد زخر الأدب بكافة أنواعه بهذه الصورة أو تلك عن اليهودية أو الصهيوونية، ولعل سعد الله

(35) ونوس - الأعمال الكاملة - المجلد الثاني ص 94.

شخصية الفلسطيني والآخر

ونوس أحد أولئك الأدباء الذين تناولوا هذا الشخصية بشيء من الموضوعية والواقعية من خلال مسرحية الاغتصاب، والتي نحن بصدد الإدلاء بدلونا في طريقة تناول هذه الشخصية ورسمها في المسرحية، من خلال صفاتها وما دلّ على تلك الصفات من شواهد.

الصهيونية تمتاز بعقدة الانفصال عن البشر والامتياز المتفوق عليهم:

فقد كانت هذه النزعة عاملاً أساسياً في تكوين شخصية اليهودي منذ القدم عن طريق الأنساب والأعراق والذكريات الدينية المشوّهة والتي تضخمت وغلظت مع الزمن، لقد رأى اليهود أنهم في مجتمعاتهم المتفرقة في أنحاء العالم التي كثيراً ما تعرضت لكرهية الأمم الأخرى لها، فقد عاشوا يصارعون عوامل الفناء، فكان طبيعياً أن يأخذهم الزهو والغرور؛ فظهرت في تعبيراتهم اللغوية ألفاظ يطلقونها على أنفسهم؛ لتؤكد ذلك الغرور وتزيد من الالتحام الذي يربطهم، وجعلوا تلك الظاهرة مرتبطة باختيار إلهي لهم دون سائر شعوب الأرض وبإرادة سماوية، لا قبل للبشر بمقاومتها، ومن هذه الألفاظ: أبناء الله، حلفاء الله، شعب الله المختار والشعب الأزلي، والشعب الأبدى.

إن اعتقاد اليهود في اختيار الربّ لهم ليس مجرد مفخرة يتشرفون بها لكنه برنامج، فالكون خلق لأجلهم، وفيهم يعاقب الله الأمم الآخر "...لأنك شعب مقدس للرب إلهك، وقد أختارك الرب لتكون له شعباً خاصاً، فوق جميع الشعوب التي على وجه الأرض"⁽³⁶⁾. وتمثل هذا الشعور بل العقيدة عند شخصيات سعد الله ونوس في الاغتصاب، عند: الأم ومائير وجدعون. "مائير: تسمي ميثاق الرب والوعد الإلهي نزعة امبرالية، نحن هنا؛ لأن الرب وعدنا؛ ولأن الرب أعطانا؛ ولأن الرب أقسم ان يسقط في أيدينا أعدائنا، ولن نسقط كلمة واحدة من جميع ما كلم به الرب بني إسرائيل"⁽³⁷⁾. "اسحق: نحن نتعامل مع حثالات... قروود تسير على قائمتين"⁽³⁸⁾. "الأم: لا تغضب يا ملكي... تقلّد سيفك... اقتحم شعوب تحتك يسقطون"⁽³⁹⁾، وهم في عقيدتهم هذه لا يتوقفون حدّ التنظير فقط، فلك الأم تتولى إرضاع هذا الحليب الفاسد والفكر القائم على الخرافة - شعب الله المختار وإسرائيل الكبرى وجوييم لحفيدها داود: "...هل تكمل حكاية داود الجميل؟ أنت تفهم ما أحكيه لك، أعرف أنك تفهم... ونظر

(36) المرجع نفسه ص96.

(37) مجلة الأديب جزء 11 صفحة 29 سنة 1969.

(38) حسن ظاظا -شريعة الحرب عند اليهود ص50 نقلاً عن سفر التثنية.

(39) ونوس الأعمال الكاملة- الجزء الثاني ص126.

د. فضل حسن

جوليات داود واستخف به؛ لأنه كان غلاماً أشقر... فمد يده إلى الكتف وأخذ منه حجراً، وقذفه بالمقلع فأصاب جوليات...⁽⁴⁰⁾، أنها تربية مخططة متوارثة، إرضاع وإشباع منذ الصغر، وبذر للحقد والقتل والكراهية مع شروق شمس كل نهار ومع نسيمات الهواء، لقد كانت الأم في تلك المسرحية معيناً لا ينضب، اتكأ عليه ونوس أنموذجاً لمن ينشرب مغالطات التاريخ وبدع اليهودية ليصنع الصهيوني الصرف، أداة القتل والتدمير، والأم هي النبع وهي المدرسة حتى إن راحيل أم الطفل نفسها أبدت اعتراضاً على تربية الأم لحفيدها ديفيد (داود): "راحيل: ترققي بالطفل يا أمه، أذناه الغضتان لا تحتلمان هذه العبارات، الأم: إنها قصة سميده داود. راحيل: سيسمعها كثيراً حين يكبر، الأم: يجب أن يحفظها قبل أن يعيها، لقد أحسنت تربية ابني وسأحسن تربية حفيدي"⁽⁴¹⁾. ولعل الأمر ينطور، فعلاقتها أعني: الأم، مع مائير (رئيس وحدة الأمن) ما كانت لتقوم لولا هذه العقيدة التي جمعت بينهما ودعم كل منهما الآخر، لم لا؟ وكل منهما يروي قفار الآخر بماء التعصب والخرافة والعمل الدؤوب من أجل الصهيونية- "إن ما بيننا يسمو فوق البعل... رأيت فيه سليل داود يهب من بين الأموات... قلت في نفسي: هذا بوصلتي إلى وطني... وسرنا معاً"، "أحبني كما أحب الرب إسرائيل.. وأحبيته كما يحب اليهودي المسيح"⁽⁴²⁾، إنها علاقة قائمة على تغذية هذه الأفعى ورفيقها لجيل مشحون ومعاباً، بكل ألوان الحقد والإخلاص للصهيونية. "إن مائير رجل كامل، وبأمثاله تحققت المعجزات، عاش كالراهب الذي نذر نفسه لقضيته، وبطولاته في الأروغون مأثورة... لو تعلم بأي دأب كانوا يخططون للمستقبل"⁽⁴³⁾، ومن تخطيطهم ولد جيل مثل اسحق وجدعون: اسحق: ما الخطأ إننا نقوم بواجبنا؟، ألم يعلموني أن أكون حاداً كالמוש، وحيداً وقاسياً كالخوف؟ فكل شيء سيتقوض إذا تركنا العطف يتسرب إلى قلوبنا...⁽⁴⁴⁾. ولا ضير عندهم أن يقتلوا من يعارض إيدولوجيتهم ومشاريعهم حتى لو كان الزوج "الأم كان موته مريحاً ومناسباً للجميع، للسيد مائير وأنا وأولهم

(40) المرجع السابق ص105.

(41) المرجع السابق ص87.

(42) المرجع السابق ص84.

(43) ونوس الأعمال الكاملة - الجزء الثاني - ص84.

(44) المرجع السابق ص140.

شخصية الفلسطيني والآخر

أنت⁽⁴⁵⁾ والسبب ". كان يعارض إرسالك إلى حضانة الكيبوتس⁽⁴⁶⁾ " ولو تركتك له لأفسدك " (47) " كان موسوساً لم يشاطرنى حماستي للصهيونية"، وتلك التربية والإيدلوجيا أتاحت لهم الأعمال القذرة: "لن تزيدهم تشويهاً، ما تفعلونه أقل مما أوصانا به الرب"⁽⁴⁸⁾. سيقضون على كل من عارضهم فهي أصول تشربوها: "مائير: لا يمكن... هذا تجديد... منذ طفولتي علمني والذي الذي قتله الألمان، وهو ينشد لها تكفا أن اليهود يجب أن يرجعوا إلى أرض إسرائيل، وأن يعيدوا تأسيس مملكتها الكبرى"⁽⁴⁹⁾، هذا هو الحق الواضح كدورة الأيام، وكل من يعترض يجب أن نسحقه دون رحمة... حتى ولو كان الابن... ها هو اسحق يقتله مربيه مائير؛ لأنه طلب الإعفاء من العمل؛ لأنه همس بالاعتراض على أعمال التنكيل والتعذيب.. ولم تكثر الأم لمقتله ما دام ذلك لصالح الصهيونية "ثمرة فاسدة يا حبيبتى...⁽⁵⁰⁾ الأم: وهل قطعت الثمرة؟، مائير: لم يكن هناك مجالاً... الأم: أصدقك فأنت أدرى". ومع ذلك لن تتوقف التربية، ولو قتل الابن، فهناك الحفيد: "ولدي ولدي.. عزا يسألني دامت عن أبيه، فماذا أقص له؟ ... في البدء كان الخلق..."⁽⁵¹⁾، ولقد وقفت كثيراً عند شخصية الأم، فهي ركن أساس من منهاج متكامل، فهي مرضعة التراث للأطفال، إنها الصهيونية بحد ذاتها والتي لا تتضب من نفث سموم يهوه وقبضة من غضب الرب.

أما الركن الثاني لهذا المنهج فهو (مائير) أو (البابا) كما يناديه أتباعه، وهو رأس الصهيونية والراسم لخطوات أجهزتها الأمنية، إنه واقع يعيش، ينفذ أمر الرب ليثبغ غضب التاريخ اليهودي كله أجمع بما يحمل من مشاعر كره لكل ما هو غير يهودي، لا يقيم وزناً لحياة أو إنسان، إنه وأتباعه أنموذج آخر وأصيل للشخصية الصهيونية.

(45) المرجع السابق ص142.

(46) المرجع ص144.

(47) المرجع ص139.

(48) المرجع السابق ص137.

(49) المرجع السابق ص138.

(50) المرجع السابق ص146.

(51) ونوس -الأعمال الكاملة- الجزء الثاني ص149.

د. فضل حسن

شخصية عنصرية عدوانية، لا تعرف الشفقة مسكونة بنكرة الصراع.

إن الإسرائيلي وإن سلم نفسه بالزيارة أو بالسحر أو التمتع بالحياة، لا ينسى أبداً فكرة الحرب، التي تلازمه كظلّه، فإما أن يكون في حرب وإما يحضر للحرب، وربما تكون قصة صراع يعقوب (إسرائيل) عليه السلام مع رجل الليل الغامض رمزاً يتخيله اليهود أساساً للسلوك في الحياة، فهي فكرة ملتصقة برأس اليهودي منذ البدء، مكوناً كثيراً من المرويات والأساطير (كشمشون 9 مثلاً، ويستقر ذلك كله في التربية والفكر والتصرف - لقد رسم لنا ونوس هذه الشخصية على واقعها عدوانية تتخذ من سفك الدماء والإرهاب سبيلاً لتثبيت وجودها على أرض تمور غضباً وثورة - والأساليب التي تتسم بها تعتمد على الأصول الفكرية التي جاء بها التلمود - مفعمة بإيدلوجيا التعصب وأساليب الخسة ذات النزعة العنصرية، والتي تجعل اليهودي يشعر بأنه من جوهر غير طينة البشر، وهي العنصرية التي تدفع اليهود إلى التخلص من العناصر غير المرغوب فيها بوسائل شرسة وحشية، شخصية تعتمد على: المغالطة والرياء والتفسيق التاريخي والتزوير، لذلك بنيت على الجانب العسكري الصرف، لقد ألغت كلمات الرحمة والشفقة والتراخي من قاموسه السلوكي، وبدأ ينغمس في خضم القتل، إلى درجة أصبح فيها قتل العرب متعة له وحفلة مقدسة.

فقد جاء في سفر صموئيل "وأخرج داوود الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير وفؤوس حديد وأمرهم في أتون الأجر، وهكذا صنع بجميع مدن عمون" (52).

"وكلم الرب موسى في عربات مؤاب على آرون أريحا قائلاً: كلم بني إسرائيل وقل لهم: إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان تطهرون كل مكان في الأرض من أمامكم وتمسحون تصاويرهم وتبيدون أصنامهم، وتخربون كل مرتفعاتهم تملكون الأرض، وتسكنون فيها؛ لأنني قد أعطيتكم الأرض كي تملكوها" (53). "وَدَفَعَهُمْ إِلَهُكَ أَمَامَكَ، فَانْكَ تَخْرِبُهُمْ، وَلَا تَقْطَعْ لَهُمْ عَهْدًا وَلَا تَشْفَقْ عَلَيْهِمْ" (54). لقد كانت شخصيات ونوس ممثلاً حقاً لتلك التعاليم من خلال: الأم ومائير وجدعون وموشي وإسحق. مائير" وأما مدن أولئك الشعوب التي يعطيك الرب نصيباً، فلا تستبق منها نسمة ما، بل تحرمها

(52) المرجع السابق ص 160.

(53) المرجع السابق ص 161.

(54) حسن ظاظا - شريعة الحرب عند اليهود ص 54.

شخصية الفلسطيني والآخر

تحريماً، **جدعون**: أسلمهم إيسالاً، **موشي**: اذبحهم ذبحاً، **الأم**: ولا تعف عنهم، بل اقتل رجلاً وامرأة، طفلاً ورضيعاً، بقرًا وغنماً... **مائير**: عليكم ألا ترحموا حتى تدمروا نهائياً ما يسمى بالثقافة العربية التي سوف نبني حضارتنا على أنقاضها⁽⁵⁵⁾، لا تقف حدّ التنظير، وذلك واضح من اعتقال اسماعيل ورفاقه، وحفلات التعذيب التي وقعت عليه، ثم اغتصاب دلال بطريقة قذرة، **مائير**: علمنا أن نمحق الإرهابيين⁽⁵⁶⁾، وهي شخصية تحفظ دورها: "نحن نعمل عملنا، وعلى السياسيين صياغة التصريحات المنمقة"⁽⁵⁷⁾، يجب أن يبقى الغير ذليلاً صاغراً تحت أقدام اليهود، ولعل قمة حقدهم وعنصريتهم تظهر في حفلة القذارة - الاعتداء على دلال زوج المناضل إسماعيل، اشترك فيها **مائير** - الأمر - و**جدعون** واسحق وموشي وقد علق **مائير** على تلك الأفعال المشينة "...هذه الحفلات تثير فيّ نشوة... تكاد تكون دينية - نعم دينية"⁽⁵⁸⁾. إنها شخصية لا تطيق أن ترى الأعداء صامدين روحياً حتى ولو إنهار الجسد إنه تدمير شامل ف**مائير** لا يبحث عن الاعتراف من اسماعيل فقط، بل يريد سحق الكبرياء في نفس إسماعيل الرمز". **اسحق**: لم يبق لديه ما يفيدنا، **مائير**: بل بقي شيء هام، أظن يا أسحق أن ما يشغلني هو المعلومات، إلى الجحيم بالمعلومات، لدينا ما يفيض عن حاجتنا الأمنية؟ ولكن ماذا عن كبريائه؟ هل نسمح لهؤلاء القتل أن يتدربوا على الكبرياء؟ هذه بيضة الأفعى التي ينبغي أن نحطمها⁽⁵⁹⁾، فهذه نقطة الصراع المفصلية تحطيم الفلسطيني دون رحمة، وصورة أخرى لذلك النوع من الشخصيات تمثلت في **جدعون** أداة القتل الحقيرة عديمة الإحساس: **جدعون**: نحن نتعامل مع مخلوقات يجب أن تباد⁽⁶⁰⁾ إنه نتاج مخلص لتلك التربية، ومخلب فعال في يدها" حين كنا صغاراً علمونا أن نحذر الشفقة والحنان، وأن ننتزع ما نريده انتزاعاً، نعم (الاعتصاب).. .. وكلمة ازدادت ضراوةً ازداد تقدير بابا لي⁽⁶¹⁾، هو حقاً ماكينة فتك وقتل، فهو رأس الحربة في الاعتقال عند اعتقال

(55) المرجع السابق ص 254.

(56) المرجع السابق ص 205.

(57) ونوس - الأعمال الكاملة - المجلد الثاني ص 69 - 70.

(58) المرجع السابق ص 106.

(59) المرجع السابق ص 107.

(60) المرجع السابق ص 132.

(61) ونوس - الأعمال الكاملة - المجلد الثاني - ص 123.

د. فضل حسن

دلّال، وهو كذلك المخلص في تعذيب إسماعيل حتى يستشهد، وهو المنفذ الرئيسي في الاعتداء على دلّال حتى تنهار، إنه جهاز بطش لا يجد ضيراً في الاعتداء على راحيل واغتصابها مع أنها زوج صديقه، ولا يأسف على فعلته: "جدعون: آسف من أجل الثياب، يمكن ان نرتب الأمر، راحيل: سافل... أهذا ما تأسف عليه؟ وماذا عني أنا؟ جدعون: يمكن أن نكررها. راحيل: كيف تستطيع أن تكون منحطاً وحقيراً إلى هذا الحد؟!"⁽⁶²⁾

شخصية عديمة الأخلاق.

وتلك صفات متفق عليها عند جميع الأمم في نسبتها إلى اليهود ويظهر ذلك في المسرحية من خلال التعذيب القذر والاعتداء على النساء دون رحمة، حتى ولو كانت المرأة زوجة صديقه كما فعل جدعون وغدر براحيل، فالغدر من صفاتهم، شخصية تعتمد على الجاسوسية والشك بالآخرين كما تجسس مائير على اسحق؛ ليعرف كل أخباره "إنك تنبش حياتي الخاصة، إنك تراقبني كأنني مشبوه. مائير: ليس هناك حياة خاصة لمن يعمل معنا. اسحق: كرامتي... أين كرامتي؟"⁽⁶³⁾. وتظهر تلك الشخصيات انحلال الأخلاق أيضاً من خلال الألفاظ البذيئة التي تتلفظ بها والتي تنتشر في صفحات المسرحية من مائير... و جدعون... والأم حتى عاطفة الأمومة تتعدم حين يتعلق الأمر بقضية الصهيونية.. فلا ضير أن يقتل الابن ما دام ذلك يخدم الصهيونية ويظهر ذلك من موقف الأم حين قتل اسحق من قبل مائير، فماذا ننتظر ممن ينظر إلى غيره من الناس نظرة احتقار، ويستغلون أي فرصة للغدر؟ ينشرون فسادهم بأسلحتهم المعروفة: الخرافة، الابتزاز، التهديد، القتل، المال، والنساء الساقطات.

شخصية قلقة مضطربة.

لقد رسم لنا ونوس في مسرحيته تلك الشخصية من خلال اسحق، والتي يتنازعها تياران: تيار الإخلاص للصهيونية ومبادئها - كما كان طول حياته سلاحاً فتاكاً في تنفيذ أوامرها - وتيار وخز الضمير والشك في الصهيونية من خلال الشك بعدل الوسائل المستخدمة في تحقيق هذه المبادئ، فقد

(62) المرجع السابق ص132.

(63) المرجع السابق ص133.

شخصية الفلسطيني والآخر

كان يعبر عن موقفه بدايةً "نحن نتعامل مع حثالات... قرود تسير على قائمتين"⁽⁶⁴⁾، "إني مقتنع بعدالة عملي"⁽⁶⁵⁾ وخلال تنفيذه لعمله، وللصراع الداخلي القائم في ضميره، ولشعوره بالضعف الجنسي نتيجة لذلك القلق والصراع بدأت بذور الشك عنده فيها هو ينهار بعد حفلة الاغتصاب القذرة فقام بعمل كالمجنون؛ ليعوض عن نقصه وقلقه، وها هو ينهار بعد استشهاد إسماعيل "اسحق... ماذا جرى؟ لقد مات فعلاً... مائير: ماذا جرى لك؟ ... قائد الحفلة يصفّر ويغمر عليه! هذا شيء مخزٍ اسحق: اعذرنى إني متعب... اعتقد أنني مريض"⁽⁶⁶⁾. ويزداد ذلك القلق والصراع عند سؤاله للأم عن أبيه الحقيقي جوزيف بنحاس؟ ليبدأ بتذكر الصورة الرومانسية المسالمة لأبيه، ونبذ الأم لذلك البعل؛ لأنه لم يكن نشيطاً أو مشجعاً لأعمال الصهيونية: "عملنا شاق يا أماه... إني متعب... التعب في أعماقي... لم أعد متأكداً أن ما نقوم به جليل"⁽⁶⁷⁾. ثم تبلغ الذروة عند ذهابه للدكتور ومصارحة زوجته راحيل بتشخيص الدكتور إبراهيم لحالته "لقد ذهبت إلى الدكتور... شخص لي مرضي... إنه نوع من العقاب... إنه تعبير جسدي عن ندم خفي... كان علينا أن نقوم بعمل رهيب... هناك انسان في داخلي يتولى عقابي"⁽⁶⁸⁾، ثم يعترف بإنسانية الفلسطيني "...لم يكن حشرة... لم يكن قمامة نرميها في المزبلة... كان رجلاً له عيان مروّعتان... ووجه تتكلم ملاك... كان إنساناً... وقبل أيام مات بين يدي... إني أتفرز من نفسي... لا احتمال العمل، لا أريده... أريد أن أخرج من هذا النفق المظلم..."⁽⁶⁹⁾. ثم مرحلة الانقلاب: "ست مقتنعاً أن ما فعله عادل"⁽⁷⁰⁾. وتصل قمة الصراع والاضطراب عنده حين يعلم باعتداء جدعون زميله على راحيل زوجها المنهارة ليربدا العبارة معاً "...إلى أي حضيض نهوي؟!"⁽⁷¹⁾ ثم المواجهة مع رئيسه مائير ليبلغه بقراره ترك العمل لعدم اقتناعه

(64) المرجع السابق ص132.

(65) المرجع السابق ص 158.

(66) ونوس -الأعمال الكاملة- المجلد الثاني- ص105.

(67) المرجع السابق ص113.

(68) المرجع السابق ص127.

(69) المرجع السابق ص143.

(70) المرجع السابق ص145.

(71) المرجع السابق ص146.

د. فضل حسن

به. "مائير: الكرامة الفعلية هي أن تكون فولاداً. اسحق: أي أن أعذب وأقتل كما أنتفس؟!، مائير: إنك لا تعذب بل تحمي وطنك من القتل اسحق: ولكننا نقتلهم، مائير: قتل القتل عدالة اسحق: ألا نلعب بالتسميات، مائير: لقد فسد إيمانك تماماً، اسحق: ربما لا تفهم ذلك اكتشفت من خلال جسدي أن ما فعله ليس مقنعاً... وأما نسميهم القتل لهم عيون ومشاعر... ويحسون بالظلم... لم أعد متأكداً أن الحق كله إلى جانبنا"⁽⁷²⁾.

ثم ينتهي ذلك النقاش بقتل اسحق من قبل من رياه مائير كما قتل أباه من قبل.. وذلك مصير من يعارض الصهيونية، أو من بدأ يفكر بإنسانية العدو... كانت السيطرة للأغلبية الصهيونية مائير، الأم، جدعون، وموشى، ومن يوازن بعدل يقلق... يضطرب... يقتل.

الشخصية اليهودية الإيجابية:

حاول سعد الله ونوس أن يجعل لذلك النمط من الشخصيات وجوداً في الواقع ووجوداً في روايته الاغتصاب، أما الواقع فمن خلال ضرب أمثلة لأنثتين وليفتخر ورويشر - صفحة 114 - 115، من المجلد الثاني من الأعمال الكاملة، وفي الرواية من خلال الدكتور إبراهيم منوحين. حيث أجرى حواراً مع تلك الشخصية في سفر الخاتمة، فهو مؤمن بوجودها، ويعترف ونوس بالمجهود الكبير لكي يميز أمثال تلك الشخصية ويقدمها "الدكتور: أهو شاق أن تقدم شخصية مثلي؟ ونوس: كان ينبغي أن أتخطى الكثير من الحواجز، الريبة التاريخية التي تمنع وجودك، والغوغائية السياسية التي تحول دون تمييزك، وخوف المهزوم من الخديعة، وبرزخ الضحايا والجراح، وفوق هذا مكائد الشرطة وصائدي الجواسيس"⁽⁷³⁾، وشخصية الدكتور مفعمة بالرفض والاحتجاج على أفعال الصهاينة وزباينتها. "الدكتور: هذه مملكة العصاب والجنون، الرأس كله مريض، والقلب بجملته سقيم، من أخصم القدم إلى الرأس"⁽⁷⁴⁾. وهو لا يقف حد التمتة في الإحتجاج بل يعلن ذلك: "اسمع يا سير بنحاس، لا تظن أنني أخاف من إعلان رأيي، إن ولائي ليس للقانون بل للعدالة، وليس فيما تفعلونه عدل.. والآن يمكنك أن تشي بي أو تتخذ ماتراه من الإجراءات"⁽⁷⁵⁾. وهو يدعو إلى المقاومة وفضح

(72) ونوس -الأعمال الكاملة- المجلد الثاني - ص159.

(73) المرجع السابق ص160.

(74) المرجع السابق ص69.

(75) المرجع السابق ص114 - 115.

شخصية الفلسطيني والآخر

أعمال الصهاينة فيها هو يوصي راحيل بنشر تلك الفضائح في الصحافة: "الدكتور: لا ينبغي أن نياس - انشري القصة على أوسع نطاق - لن نتواطأ معهم - لن نسمح لهم بمصادرة المستقبل"⁽⁷⁶⁾.
أما الشخصية الإيجابية الثانية التي رسمها ونوس في المسرحية فهي شخصية الأب جوزيف بنحاس، الذي هاجر إلى فلسطين دون حماس شديد، ولم يكن مشجعاً لأعمال الصهاينة، وكان ينقدهم علانية دون خوف، فقد احتج على ذهاب ولده اسحق إلى الكيبوتس، ولكن الأم أصرت وكان يصب العداء على الصهاينة: "اسحق: علام كان ينصب عداؤه؟ الأم: على كل ما نؤمن به: الحركة الصهيونية، والهجرة، والوطن القومي. اسحق: هل كان يسرّ لك بأفكاره؟ الأم: بل كان يعلنها بكل وقاحة صاخبة"⁽⁷⁷⁾. وتشير الأم إلى أنه كان يهتم بجوانب تافهة كثيرة! كالكمان... والرسم... وألعاب الأطفال... وقد تعدها تراها ومفسدة لتربية الطفل الصهيوني.⁽⁷⁸⁾ أما الشخصية الإيجابية الثالثة فهي راحيل زوج اسحق، والتي لم تكن في البداية راحيل تعلم شيئاً عن عمل بعلمها وفذارتها، بل كانت تعترض أحياناً على طريقة تربية الأم لإبنتها، وما تنقل به سمعه من أخبار التاريخ الخرافية القائمة على القتل والتدمير. راحيل: ترفقي بالطفل يا أمه؛ أذناه غصتان لا تحتلان هذه العبارات. الأم: إنها قصة سمية داوود، راحيل: سيسمعا كثيراً حين يكبر"⁽⁷⁹⁾ ثم تنهار حين اغتصبها جدعون وحين علمت بعمل بعلمها لتردد عبارة واحدة "إلى أي حضيض نهوي!... ابتعد عني!... وحوش إنكم وحوش!... يا إلهي إلى أي حضيض نهوي!"⁽⁸⁰⁾، وهي تحتج على تربية الأم "أنت يا امرأة الحليب الفاسد... انظري جسدي وثيابي يا مرضعة الذئب... ذئب ضارية في بريّة هجرها الله تقزراً"⁽⁸¹⁾ ثم تتخذ قراراً بمغادرة أرض الذئب "لا أحتمل هذا البيت!... لا أحتمل رؤيتك!، لا أحتمل أمك!، لا أحتمل جسدي! وهذا الغثيان لا!... ينبغي أن أهرب، وإلا نفقت كما تنفق الكلاب"⁽⁸²⁾. ثم تنفق مع

(76) المرجع السابق ص163.

(77) ونوس - الاعمال الكاملة - المجلد الثاني - ص139.

(78) المرجع السابق ص136 - 139.

(79) المرجع السابق ص84.

(80) المرجع السابق ص135.

(81) المرجع السابق ص147.

(82) المرجع السابق ص151.

د. فضل حسن

الدكتور إبراهيم على نشر الوثائق والمذكرات التي سجلها الدكتور! لفضح الصهيونية "نشري القصة على أوسع نطاق... لن نتواطأ معهم، ولن نسمح لهم بمصادرة المستقبل" (83).

ولا بد من الإشارة هنا إلى مصير كل شخصية إيجابية رسمه لنا ونوس، أما جوزيف بنحاس وابنه اسحق فقد قتلا على يد مائير ونشر أنهما ماتا بمرض كما قيل عن بنحاس أو بحادثة عرضية كما حصل مع اسحق، أو ادعوا أنه حصل معه ذلك، أما راحيل فقد فرّت من مملكة الجحيم، والدكتور أبراهام مصيره السجن مع الاتهام بالجنون ليكون معادلاً تاريخياً لما حصل مع القديس إرميا "فأمر الملك صدقيا أن يودع أرميا في السجن" (84). "يكونون قد قيدوا الدكتور بقميص المجانين" (85). فتلك نهاية كل من يعترض على الصهاينة القتل أو النفي أو السجن وفي كل خدمة لأبناء صهيون.

تعقيب وتعليق على الشخصية: "الإسرائيلية" اليهودية.

"كما أن العالم لا يمكن أن يعيش بلا هواء، فإنه لا يمكن العيش بدون إسرائيل" (86). وهذا قول وحده كافٍ لوضع علامات على حدود الشخصية الإسرائيلية، إذ يمكن أن نستنتج بسهولة النزعة العنصرية التي تجعل الإسرائيلي يشعر أنه من جوهر غير طينة البشر وأنه منفرد بأسرار ومواهب لا توجد في غيره، وأن الإسرائيلي قد خلق لنفسه تبريراً سماوياً؛ لأن الدنيا التي أبدعها الله سبحانه ما كان يمكن أن يستقيم أمرها من غير اليهود.

ونحن نرى كيف يتحول الإحساس بالقلّة والذلة إلى صورة لا مثيل لها من الغرور وحنون العظمة والصلف والكبرياء، والتي تجعل عودة تلك الفئة من الناس إلى إطار المجتمع الإنساني أمراً مستعصياً يحتاج إلى إصلاح عميق ومستحيل.

الشخصية الإسرائيلية تكاد تكون فرضاً على النفوس المحبة للإنسانية وضريبة على العقول الباحثة عن العدل والإخاء والسلام، وهي اليوم أكثر أهمية منها في أي عصر مضى، ثم هي في مجتمعنا العربي أشد إلحاحاً منها في أي مجتمع آخر على الأقل، لأن القضية الفلسطينية ما تزال تستنزف في قلب وطننا قدراً هائلاً: من الدم والدمع والعرق والحبر.

(83) المرجع السابق ص163.

(84) المرجع السابق ص167.

(85) المرجع السابق ص167.

(86) حسن ظاظا -شريعة الحرب عند اليهود ص110 نقلاً عن التلمود البابلي.

شخصية الفلسطيني والآخر

لقد رسم لنا ونوس شخصياته الصهيونية بفنية متميزة ونضح، بحيث إنه لم يأخذ دور الشخصية بل ترك لها أن تعيش حياتها وتتحرك حركتها الحقيقية ضمن حوار من ذاتها، وغير مفروض عليها من الخارج، الأمر الذي ساعد على كشف جوانب تلك الشخصيات ثم إبراز أعماقها وفكرها وحدود تصورهما. وباعتقادي أن جهده لخلق الشخصية الإيجابية لم يصاحبه التوفيق كثيراً؛ لأنه نظر من زاوية واحدة، هي ردود أفعال تلك الشخصيات؛ لأنه قد وقع عليها عقاب فقط، فقد ارتد اسحق؛ لأنه شعر بعجز جنسي، وراحيل كذلك لأنها اغتصبت، وغيرهم أيضاً، فمناعتهم الصهيونية ما كانت لتكون لولا الأذى الذي وقع عليها شخصياً ولتضارب المصلحة - وكنت متأكداً لو حدث ذلك لمائير أو جدعون لحدث الشيء نفسه - ولم يكن اعتراضهم لاعتقادهم بسوء أعمال الصهيونية على التحديد.

إن رسم إيجابية اليهود ضرباً من الخيال والوهم والسراب، وأنا اتفق تماماً مع وجهة نظر إسماعيل "إننا نطارد السراب"⁽⁸⁷⁾ "بعض الفلسطينيين يشحذون خيالهم، كي يتصوروا دولة كريمة تتسع لي ولك... إنهم يحلمون"⁽⁸⁸⁾ واتفق مع موقف دلال "وهل إسرائيل شيء والصهيونية شيء آخر؟!"⁽⁸⁹⁾ إما نحن وإما هم"⁽⁹⁰⁾.

ويمكن القول إن تلك المسرحية قامت على المقابلة بين الطرفين في كل شيء:

الأسماء:

الفارعة: (سجن) تقابلها الأم المهاجرة من أرض غربية، الفارعة المتأصلة، والأم الطارئة، الفارعة ذات التربية الواعية ومثال صلاح الدين المتسامح، والأم تربيته تقوم على إرضاع الحقد والدمار، الفارعة دافئة في العائلة تحضن الجميع وتحرض على العائلة، الأم تحرض على الصهيونية وفكرها أكثر من العائلة، لا تنبس بدمعة لموت ولدها، الفارعة تشارك فعلياً في المقاومة وتعطينا المثال.

إسماعيل العربي واسحق اليهودي، ولا يخفى ما للإسمين من دلالة، إسماعيل يُضحى بجسده

(87) ونوس - الأعمال الكاملة - المجلد الثاني - ص 126.

(88) المرجع السابق ص 124.

(89) المرجع السابق ص 121.

(90) المرجع السابق ص 120.

د. فضل حسن

وروحه وعرضه ويبقى صامداً كالصخر في مواجهة الصهيونية، اسحق ضحية فعله، وعقابه تأنيب الضمير، يقع تحت نفس الجزاء، يفقد رجولته كما عاقب إسماعيل وتغتصب زوجه. دلال وراحيل - دلال اسم عربي رقيق يتصل بالبطلة المعروفة، أما راحيل: اسم محرّف عن راشيل إسم يهودي معروف منذ زمن سيدنا يحيى عليه السلام، دلال تغتصب وتكون ردة فعلها مواجهة الظلم والانتقام راحيل تغتصب وردة فعلها الهروب.

الأطفال وعد الأمل الفلسطيني بالحرية وبأن يديروا شؤونهم بأنفسهم، ديفيد وريث التاريخ المشوه المرتبط بالخرافة الدينية، إنه ماضٍ قاتم، ووعده مستقبل مفعم بأمل الحرية. المقاومة، الاحتلال، المثال المتسامح صلاح الدين، المثال المنتقم المدمر ديفيد، سفر الأحزان، سفر النبوءات. العرب، اليهود، و(إما نحن وإما هم).

وبعد هذا التطواف بين سطور المسرحية يمكن أن نخلص إلى النتائج التالية:

أولاً: المسرحية تأمل شخصي من ونوس في قضية العرب الجوهرية، ودعوة إلى التفكير فيها بصورة عقلانية من وجهة نظره بالاستماع إلى الآخر، واستغلال الإيجاب عنده لصالح القضية. ثانياً: علينا أن نفهم جوهر الصراع العربي الإسرائيلي وأطراف الصراع اليهودية فنهم إيدولوجيتها؛ كي نتمكن من مواجهته.

ثالثاً: رسم لنا ونوس شخصيات من الجانب الفلسطيني كانت مستمدة من الواقع الفلسطيني وتنوعه مع بعض المآخذ على تلك الصور التي رسمها:

- أ- فقد كان الميل فيها إلى الخطاب والدعائية أكثر.
- ب- وإن تلك الشخصيات رومانسية في معظمها مكرورة الصورة مع شيء من التسطيح.
- ت- غياب بعض الشخصيات الفلسطينية الفاعلة في الصراع وفي الانتفاضة خاصة؛ كالمجموعات الضاربة من أبناء المخيمات هناك الذين كانوا رأس الحربة وجسم المقاومة.
- ث- إخفاء العنصر الديني عند الشخصيات الفلسطينية، مع انه العامل الأقوى في دفع وسير الانتفاضة: كالمسجد والكنيسة.
- ج- إغفال إظهار صور التلاحم والتكافل الشعبي بين أبناء فلسطين: أهل الضفة وأهل الداخل (48) مع أن هذا كان ظاهراً في الانتفاضة.
- ح- سيطرة الفكرة أكثر من أداء الشخصية خلال عرض ونوس لشخصه.

شخصية الفلسطيني والآخر

رابعاً: قدم لنا ونوس الشخصية اليهودية عارضاً لبعض الذين لا يوافقون الصهيونية، والمدقق في رأيي، في تلك الشخصيات يجدها لم تعارض الصهيونية لغوها في المبادئ وإنما لأن بعض الأذى الشخصي وقع عليها فهي معارضة أنانية وليست بجامع الشعور الإنساني.

خامساً: كما أن الشرق والغرب لا يلتقيان، كذلك اتحدت كل قطاعات الشعب الفلسطيني، ولو كان ذلك في الضمير - لتركّد في ذهنها شعار دلال - إما نحن وإما هم.

سادساً: إن الشخصية اليهودية، مع إيمانها بالخرافة إلا أنها كانت مخصصة لمبادئها، متفانية في أدائها وفق تخطيط منظم؛ لذلك نجحوا بالاضافة إلى عيوبنا.

سابعاً: ركز ونوس في المسرحية على الفكرة، وذلك نابع من إيمانه بفكرة التنسيب، والتنقيف الواعي لجمهور المسرحية.

المراجع والمصادر:

1. حسن ظاظا، شريعة الحرب عند اليهود الأولى 1976 دار الإتحاد العربي مصر.
2. حيدر محمود -ديوان- دار البشير - عمان، 1989.
3. سعد الله ونوس، الأعمال الكاملة -المجلد الثاني- الأولى -1996 الاهالي دمشق.
4. مجلة الأديب -جزء 11 - سنة 1969.